١٦٦٢٨

مجله	الازهر
تاریخ نشر	ذی الحجة ١٣٩٩
شماره	١٠ سال ٥١
شماره مسلسل	
محلّ نشر	مصر
زبان	عربی
نویسنده	عزت الدسوقی
تعداد صفحات	٢٣٣٦-٢٣٢٦
موضوع	رای فی التفسیر العلمی
سرفصلها	
کیفیّت	
ملاحظات	

رأى فى التفسير العلمى

فضيلة الشيخ عزت الدسوقى

يثور جدل هذه الأيام حول تفسير بعض الآيات الكريمة المتعلقة بالكون فمن قائل بوجوب تفسيرها بما يتفق وما يجد من العلوم والنظريات والاكتشافات وأصحاب هذا الرأى يرون أن القرآن الكريم — وان لم يأت بالتفاصيل الدقيقة التى تتميز بها كتب العلوم — الا أنه أتى بحقائق من العلم بصورة كلية ، تاركا التفاصيل للباحثين والمتخصصين فهو كتاب علم كما هو كتاب تشريع ووعظ وتنظيم لشئون الحياة كلها بجميع نواحيها . قال تعالى فى سورة الأعراف : « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

والبعض الآخر يرى أن ننأى بكتاب الله تعالى عن هذا المنزلق لأن العلوم تتطور وتتغير ، فاذا فهمنا فى كتاب الله فهما مطابقا لجديد من العلم فلا نأمن أن يحدث تغيير وتبديل نتيجة للبحوث المتكررة والاكتشافات المستمرة ، وحينئذ يحدث ما لا تحمد عقباه .

وحين أشارك بقلمى المتواضع فى هذا المعترك فلأنى عاصرت أحداثا عرضت أثناء تجوالى فى البلاد العربية والاسلامية مبعوثا للأزهر أجد من واجبى أن أضعها أمام المهتمين بهذا الامر ، ليتخذ كل منهم الموقف المناسب على ضوء هذه الأحداث .

نظرة عامة

لا يختلف اثنان فى أن المسلمين فى هذا العصر ليسوا على المستوى المطلوب منهم كأصحاب رسالة هى خاتم الرسالات وأتباع كتاب مهيمن على الكتاب كله .

فوضعهم الاجتماعى والثقافى والحضارى والعسكرى والاقتصادى متخلف بمراحل كثيرة عن غيرهم من سكان المعمورة ، ما جعل المبشرين ينشطون وسط التجمعات الاسلامية والشبابية بوجه خاص مشككين فى الاسلام كدين وأسلوب حياة .

مسئولية القيادة الاسلامية :

فالمسلمون أينما كانوا عربا أو عجما يسلمون قيادهم عن اقتناع كامل لرجل الدين والسمة الغالبة — للأسف — لرجل الدين فى أفريقيا وآسيا هى العداء الشديد لكل ما هو جديد من العلم ، ولا زال كثيرون منهم حتى هذه اللحظة ينكرون وصول الانسان الى القمر . ولقد كنت ببلد افريقى حين أذيع وصول الانسان الى القمر فما كان من أئمة المساجد فى هذا البلد الا أن خرجوا فى مظاهرة صاخبة وذهبوا الى السفارة الامريكية ورجموها بالحجارة ، وأخذتهم حمى المعارضة لمدة اسبوعين فمكبرات الصوت فى كل مسجد تحذر الناس من تصديق هذا الخبر ، وتخبرهم بأن القرآن الكريم يكذبهم . ويمنع خروج الانسان من أقطار الأرض، ونشط المبشرون وسط الشباب المثقف يلقون ظلالا كثيفة من الشك على صدق القرآن الكريم الى حد أن ذهب أحد طلاب المدرسة الثانوية المصرية فى هذا البلد الى مدير المدرسة وطلب ملفه ليعدل فيه نوع الديانة من الاسلام الى المسيحية .

ولا زال على قمة رجال الدين فى بلد عربى كبير مفت يحكم بكفر من يقول بدوران الأرض حول نفسها أمام الشمس وحولها وتظهر له بين الحين والحين مؤلفات تحمل هذا المعنى وتدلل على ذلك بآيات من كتاب الله تبارك وتعالى .

قد يكون هذا القول غريبا فى مصر ، ولكن اذا سنحت لك فرصة التجوال فى العالم الاسلامى وخالطت القائمين بقيادة المسلمين من العلماء هالك ما هم عليه من تزمت جعل الكثير منهم يقف حائلا بين أبناء هذا البلد وبين الالتحاق

بالمعاهـــد الأزهـــرية فى افـــريقيا محتجين بأنهم يدرســـون الجغرافيا وهى كفر •

وحدث مـــرة عند انصرافى من محاضرة فى أحد المساجد ببلد عربى شقيق أن تقدم الى شـــاب بدوى قائلا : « يا شيخ ! ! يقولون فى المدارس للصبية كما يقول الكفار « ان الأرض تدور ، وأنها كرة ، مع أن القرآن الكريم يقـــول : « والأرض فرشناهـــا » ، « ألم نجعل الأرض مهادا ؟ » • فمـــا رأيك ؟ »•

تريثت قليـــلا قبـــل أن أجيب ، فقد كان فى هذا البلد ضجة ضد دراسة الجغرافيا ، وكان المتزعمون لها والمثيرون أوارها هم رجـــال الدين ولهـــم فى نفـــوس الشعب قداستهم ، ومـــكانتهم ، وكنت أحظى فى هـــذا البلد بتقديرهم واحترامهم ، فماذا يكـــون الموقف اذا خرجت على رأيهـــم ؟ لقد كان الموقف حرجا ومحيرا ، ولم تطـــل حيرتى وأثرت أن أقول ما أعتقده فى هذا الموضوع •

فأجبت الفتى الذى كان يطيـــل النظر الى متعجلا الاجابة ، قائلا : « الحق يابنى أن الأرض كـــرة ، وأنها تدور ، والقـــرآن الـــكريم لا ينفى هـــذا لا صراحـــة ولا ضمنا » •

لم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى شده الفتى ، وفغر فاه واستدارت عيناه وأخذ يتراجع الى الوراء مما جعلنى أشفق عليه وأشفق على كثير من أمثـــاله الذين حيـــل بينهـــم وبين العلم باسم الدين الذى يدعو الى التعلم ويقدر العلماء •

ليس الذهول الذى أصـــاب الفتى هو كل ما حـــدث بل ان الجمع الغفير من أهل الحى الذى خرج يودعنى كعـــادته بعد كل محاضرة انفض من حولى دون تحية أو استئذان والله وحده يعلم ماكان يجول فى خاطرهم وما يعتمل فى صدورهم •

عدت الى بيتى مهموما ، كيـــف السبيل الى قلوب هؤلاء الاخـــوة لافهامهم أن الاسلام يدعـــو الى العلم ولا يعاديه وأن ما فهموه فى

هذا الموضوع وغيره هو من أقوال المفسرين وبالتدقيق قول بعض المفسرين لا قول القرآن نفسه وأن المفسرين بشر يؤخذ من كلامهم ويرد .

ورأيت أنه لا بد للأزهر من أن يقول للمسلمين كلمته فى هذا الموضوع حتى ينفى عن الاسلام ما هو منه براء .

مضى على هذا الحادث بضع سنين ، ولا زلت أتصور هذا الشاب فى زيه البدوى وقد حز فى نفسى هلعه ونفوره ، ورأيت أننا فى أمس الحاجة الى التأمل العميق فى كتاب الله ودراسة هذه الآيات الكريمة التى يتخذ منها العلماء فى البلاد الاسلامية سلاحا لمحاربة العلم ، ولنرى موقف الكتاب الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من هذه الحقائق العلمية والتى أصبح التسليم بها ضرورة لا محيص عنها .

وبعثت الى بلد عربى آخر أسند الى فيه دراسة تفسير الجزء التاسع والعشرين لطلاب احدى المدارس الثانوية ، وكان الكتاب المقرر مؤلفا حديثا ، ولازال مؤلفه حيا يرزق الى الآن وهو أحد أئمة الحرم الشريف .

وبينما أتأهب لدخول الفصل اذا بمدرس علم الهيئة (الجغرافيا) يغادر الفصل . وبيده نموذج للكرة الأرضية ، وكان يشرح للطلبة كيف يحدث الليل والنهار ، وكان موضوع درسى أنا هو تفسير قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا » الآية . وكان فضيلة المؤلف قد ذكر فى تفسير كلمة (ذلولا) ان معناها قارة ساكنة ، وهنا سألت نفسى ماذا يكون موقف هؤلاء الطلاب ، وهم يتلقون معلومات متضاربة متعارضة ، فبينما مدرس (الجغرافيا) يقول لهم : ان الأرض متحركة ، ويقيم الأدلة على ذلك مؤكدا أن سبب حدوث الليل والنهار هو دوران الأرض حول محورها أمام الشمس ، اذا بمدرس الدين يقول لهم ان الأرض قارة ساكنة لا تدور ولا تتحرك ولا يملك دليلا على

ذلك الا كلمة (ذلولا) فى القرآن الكريم ، حسب تفسير المفسر فى الكتاب المقرر عليهـــم دراسته . وليست هذه المعلومات نافلة عـلى الطلبة بل مفروضة عليهم فرضا ، وسيؤدون فيها امتحانا آخر العام فهو يقول فى ورقة الـــدين ان الارض قارة وساكنة ، فاذا قـال انها تدور وانها متحركة رسب فى مادة الدين . واذا قال انها قارة وساكنة فى ورقة الجغرافيا رسب فى مادة الجغرافيا ! !

لا ريب أن هـؤلاء الطلبـــة سيقفون حيارى بين العلم وبيـن الدين ، وأنهم ولا شك سيتهمـون رجل الدين بالجهل والقصـــور — ان تورعوا عن اتهـــام الدين نفسه — لأنهـم الآن يقـــرءون ويسمعون ويشاهدون فى برامـج الاذاعة المرئية الصواريخ ، والأقمار الصناعية ، وهبوط الانسان على القمر وتنقله فوق سطحه ، ويرون صورة الأرض المأخوذة من أجهزة الهبوط على القمر ، يرون صورة الأرض كرة هائلة ويدرسون فى حصة العلوم أن مصممى الصواريخ والأقمار الصناعيـــة وضعوا فى اعتبارهم دوزة الأرض ! !

وهنا تذكرت كلمة لحجة الاسلام الامام الغزالى فى كتابه تهـــافت الفلاسفة فى مثل هذا الموقف حين ادعى علماء المسلمين ان الفلكيين خرجوا على الاسلام فى تنبئهـم بالخسوف والكسوف . قال حجة الاسلام :

« ان من ظن أن المناظـــرة فى ابطال هذا الفن من الدين فقد جنى على الدين نفسه وضعف أمره ، فان هذه الامور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا يخفى معهـا ريبة فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها حتى يخبـر بسببها عـــن وقت الكسوفين وقدرهما ، ومدة بقائهما الى الانجلاء اذا قيل له ان هـذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه ، وانما يسترب فى الشرع نفسه اهـ .

من الطبيعى أننى لم أتقيد بمـا قاله المفسر وانمـــا فسرت كلمـة « ذلولا » بأنها مهيأة لما يريد منها الانسان فهـو يستزرعها فتـزرع

ويستخرج منها ما يحتاجه من غذاء وكساء وعلاج ويستمتع بما أودع الله فيها من خيرات .

وخرجت من الدرس وقد عاودنى العزم على التأمل بعمق فى كتاب الله عز وجل ، وخاصة الآيات التى تشير الى الكون وما فيه ، الا اننى ما لبثت أن درت فى دوامة الحياة وقد رسبت كلتا الحادثتين فى نفسى ، تطفوان فى هدأة من الحادثات تطالباننى بعنف أن أؤدى واجبى وآتى بما اعتزمت عليه ، ثم تعودان الى الأعماق مرة أخرى أمام زحمة الحياة وضجيجها .

ولكم تمنيت أن تتاح لى فرصة أخلو فيها الى كتاب الله تبارك وتعالى ، لا ينازعنى فيه منازع ، ولا يصرفنى عنه ما يصرف سائر الناس من هموم الدنيا ومطالب الحياة التى لا تنتهى الا بانتهائها ، الى أن واتتنى لحظة كريمة لفظنى فيها تيار الحياة على الشاطىء ، ومضيت الحياة فى سبيلها عجاجة صاخبة وعادت الى نفسى مكدودة لاغبة مما عانت فى موكب الحياة .

وتحسست ثيابى — وقد عييت مما لقيت — فأخرجت منها مصحفا كان ذخرى الوحيد الذى احتفظت به بعد أن تخففت من كل ما يتصل بالدنيا بسبب ، وكان كتاب الله الكريم فى هذه الحقبة من العمر الروح والريحان ، عشت فى رحابه الواسعة صباح مساء لا ينازعنى فيه هم العيش ، ولا ينزعنى من رياضة الغناء القينانة مطلب من مطالب الحياة ، وكانت حياة روحية ، أكرم بها من حياة ! !

وبدأت صور الماضى تتلاحق وتتوارد ، وكان أبرزها صبورة الفتى العربى وهو يرتد الى الوراء مذعورا ، وصورة الطلبة الذين ألزموا باسم الدين أن يعتقدوا أن الأرض قارة ساكنة ، وأيقنوا عن طريق العلم أنها متحركة دائبة الدوران والحركة ، فقلت : لقد جاءت اللحظة التى طالما تمنيتها ، فها أنذا وكتاب الله ، وعلينا باب أحكم رتاجه ، لا ينغص علينا هذه الخلوة الحبيبة أحد .

وعدت الى كتاب الله الكريم أنعم باستعادة حفظه ، وبالتأمل

فى آياته والتـــدبر فى أسلوبه وعباراته ، ولم العجلة وفيم ؟ وقد كفيت مشاغل الحياة .

ولقد وجدت كثيرا من آيـات الله البينات التى تشير الى التأمـل فيما خلق الله فى الكون ، وفيمـا بث فى الآفاق من دلائل قدرته وآيات وجوده ووحدانيته وجدتها كلهـا تؤيد بأسلوبها المجـرد عن تفسير المفسرين وبلفظها الصريح الواضح النظريات العلمية الحديثة التى وقف علماء الاسلام منها موقف الحرب والعداء .

وكان حـــريا بالمسلميـن أن يكونوا أسبق الناس الى القول بها فقد تنزل الكتاب بها عليهم . ولم يحل بين المسلميـن وبيـن فهمها على وجهها الواضح الا ما تطـوع به بعض المفسرين ، فوضعـوا لهـا تفسيرا صرف الآيات الكريمة عن ظاهرها ومدلولها .

والمسلمـون كانوا ولا يزالون ينزلون التفسيـر نفس المنـــزلة المقدسة التى ينزلها من نفوسهـم كتاب الله عز وجل . فليس لهـم أن يجادلوا فيما قاله المفسرون كما ليس لهـم أن يجـادلوا فى كتاب الله الكريم ذاته ! !

وسترى معى حين نستعرض هذه الآيات الكـريمة ـ فى مقـالات لاحقة ـ ان أذن الله ـ أنهـا لا تتعارض مع العلم ، بل ان العلم وما يتجدد من اكتشـافات يزيدنا فهما لكتاب الله تعالى ، ويكشف لنا عن معان جديدة لم يكن السبيل الى ادراكهـــا ميسرا قبل هـذه الاكتشافات .

ومن هذه النظريات التى يؤيدها كتاب الله تعـــالى دوران الأرض وكرويتها . لو أننا فسرنا هـــذه الآيات بمدلولها اللفظى وحده .

والتفسير بما وضعه العـــرب لمدلول اللفظ مسلم به ومعتـرف به ما لم يتعارض مع نص صريح صحيح .

روى البخارى فى صحيحه فى كتاب العلم فقال :

« حدثنا محمد بن ســلام قال أخبرنا وكيع عن سفيان عن مطرف عن الشعبى عن أبى جحيفة قال

قلت لعلى : هل عندكم كتاب ؟ قال : « لا » الا كتاب الله وفهم أعطيه رجل مسلم • الحديث •

قال الكرمانى فى شرحه هذا الحديث ص ١٢٠ فى بيان مايؤخذ منه : « وفيه ارشاد للعالم الى أن للعالم الفهم أن يستخرج من القرآن بفهمه ما لم يكن منقولا عن المفسرين لكن بشرط موافقته الأصول الشرعية : اهـ •

واذن فلا تثريب على من فهم من كلام الله تعالى ما يؤيد ما أجمع عليه العلماء الكونيون وان لم يقل به أحد من المفسرين خاصة اذا كان هذا الفهم هو المطابق للمدلول الوضعى للفظ فى لغة العرب ، ولا يصادم قاعدة لغوية ولا أصلا شرعيا •

وحين يخبر القرآن الكريم بأحدث النظريات العلمية ، أو يكون أوضح دلالة وأجلى بيانا حين يتكشف العلم عن جديد ، لم يكن معلوما عند وضع المفسرين تفسيرهم • انما يحمل أنصع الأدلة على أنه وحى من الله تعالى على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الرسول الكريم لا ينطق عن الهوى لأن الوقت الذى نزل فيه القرآن الكريم وبعث فيه أفضل الخلق رسولا كانت الجهالة فيه مطبقة على العالم ، آخذة بتلابيبه ، ولم تكن ثمة أثارة من علم أو مراصد ، أو آلات دقيقة ولا وسائل بحث حديثة •

فاذا تقدمت وسائل العلم ، وخرج العلماء على الناس بجديد فوصلوا اليه بالبحث العلمى المجرد ، بل كان من وصل الى هذا المعلوم الجديد بعيدا كل البعد عن الاسلام ، وما قاله القرآن الكريم ، ثم يستبين لهم أن القرآن الكريم المعجز سبقهم الى ما قالوا وما علموا بمئات السنين ، وأن ما أتوا به يتفق مع منطوق الكتاب الكريم ومدلوله كان ذلك آية لا ريب فيها بأن هذا الكتاب هو الحق وأن رسوله حق : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » •

ويجب أن أقرر هنا قبل أن أنتقل الى بحث تفسير هذه الآيات أن القرآن المجيد لا يتعارض أبدا

مع العلم الصحيح بل يؤيد العلم ويشجع البحث الحسن الطليق . ويأخذ بيد من يريد الوصول الى جديد من العلم فيشيـــر له الى وسائله ومظانه قال تعالى فى سورة يونس :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » .

وفى سورة الذاريات :

« وفى الأرض آيات للموقنين، وفى أنفسكم . أفلا تبصرون » .

وقد بلغ علماء المسلمين الأوائل الحد الأقصى فى حث المسلمين على البحث والتفكر حيث حكموا بأن ايمان المقلد غير معتبـر ، وأنه لا ينبغى أن يكون حظ المسلم من الايمان أن ورثه عن آبائه دون اعمال فكر أو بحث بل لا بد ليكون ايمان المسلم معتبرا من أن يبحث ويفكر حتى يصل عن طريق البحث الى ايمان مرتكز على دليل، وهذا غاية ما يمكن من الدعوة الى البحث والتشجيع على العلم والتعلم .

ولا يمكن لذين هذا شأنه أن يتعارض أبدا مع ما يأتى به العلم من حقائق فلم هذا العداء للعلم الذى يفخر به ـ للأسف ـ كثير ممن تصدوا لامامة المسلمين ولبسوا زى العلماء ؟

ومما يزيد الأمر بلاء وخطورة أن يدعى هؤلاء أن ما أتى به العلماء الكونيون من العلم يتنافى مع القرآن العظيم ! ! سبحانك هذا بهتان عظيم .

لما تقدم ولغيره يجب أن يعاد النظر فى تفسير الآيات الكريمة المتعلقة بالكون ، وألا نلقى بالا لما قاله بعض المفسرين فى تفسيرها ما لم يستند الى نص صريح ونقل صحيح فلقد كان لتفسير هذا البعض أثره البالغ فى تخلف المسلمين عن غيرهم فى مضمار العلوم الكونية مما أدى الى تأخرهم فى استغلال العلم والاستفادة به فى تقدمهم اقتصاديا وعسكريا .

وعلى من يتصدى لهذا التفسير أن يتقيد بمدلول الآيات القرآنية وما تتسع له ألفاظها الشريفة من معان .

وسأسير ان شاء الله فى فهمى لهذه الآيات وفى كتابتى عنها على التقيد بالنص القرآنى وما يتسع له من معان صريحة أو مجازية ذلك أننى مؤمن بأن القول الفصل فيما خلق الله فى السموات والأرض انما هو لله خالقه وبارئه ومبدعه وهو بحكم خلقه له يعلمه جملة وتفصيلا .

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . فاذا قال الله فى ذلك شيئا فقوله الحق » والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

فالأصل عندنا كتاب الله تعالى فليس لنا أن ندع صريح القرآن ومحكمه لقول قائل مهما كان .

فما أتى به العلم من جديد مما لم يتعرض له القرآن الكريم باثبات أو نفى علينا قبوله متى توفرت له الوسائل الصحيحة وقامت عليه الأدلة القاطعة .

وما تعرض له المفسرون نأخذ منه ما يتفق ومدلول القرآن وندع ما يخالف صريحه ومحكمه مهما كان القائل ومهما أتى به من عجائب تخدع الأبصار وتزيغ بها البصائر .

فانه مادام مخالفا لصريح الكتاب ومحكمه لا يلبث أن ينكشف زيفه ويتبين ضلاله ، ويبزغ الحق فى غير جانبه ، لأنه جاء بما يتعارض مع القرآن الكريم ويخالفه ، واليكم هذا المثل :

« نظرية النشوء والارتقاء التى أتى بها داروين لاقت قبولا ورواجا ولمعانا قل أن تلاقيها نظرية أخرى ولقد طبقها داروين على جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات، وبالنسبة للانسان ادعى داروين أن الانسان أول ما وجد على الأرض لم يكن بهذه الكيفية وانما كان كائنا آخر أقل وأدنى حتى صار قردا ثم تطور الى صورته الحالية .

ونحن كمسلمين لا يمكن أن نقبل ما تقوله هذه النظرية أو ما يقوله داروين بالنسبة للانسان ونشأته وتطوره لأنه يخالف صريح القرآن الكريم فى خلق الانسان وفى أصل خلقته ، يقول الله تعالى فى سورة التين :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » .

ولقد أتى على الناس الثلاثينات كانوا يعتنقون هذه النظرية كأنهم يعتنقون دينا . ولقد كان المعارض لها محل سخرية وتجهل ممن لا حظ لهم من العلم الا الاعجاب بمـــا يقوله داروين .

وها نحن الآن والحمد لله نجد معارضة جدية لمقالة داروين لا من أنصاف المتعلمين والعلماء ولكـــن معارضة من علماء توفـــروا عـــلى البحث بوسائل علمية جادة واصبح من يقول بنظـــرية داروين بالنسبة للانسان والحيوان محل استهـــزاء وسخرية بعد ما كان محـــل تقدير واعجاب .

ومما يؤسف له ـــ مع ما ثبت من كذب القـــول بتطور الانسان والحيوان ـــ أننا لازلنا نرى الكتب المدرسية وخاصة فى رياض الأطفال للبـــراعم الصغيـــرة فى المـــدارس الابتدائية تصور الانسان فى أول عهده بالحياة قردا كبيرا يتســـلق الأشجار ويمســـك بعصا غليظة وجسمه مغطى بشعر كثيف ممـــا يؤثر تأثيرا ضارا فى تصور الطفل للانسان ويؤثر بالتالى على عقيدته وايمانه بقول الله تعالى : « لقـــد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم »

فهل يتنبه المسئولون عن التعليم فى بلدنا الى هذه الظاهرة ؟

والى لقاء ان شـــاء الله .. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

عزت الدسوقى

الف ـ ٤٢

١٦٦٢٨